

قراءة في كتاب: النفس المبتورة

المؤلف: داريوش شايفان

الصفحات: ٢١٩ صفحة

الناشر: دار الساقبي

التاريخ: الطبعة الأولى ١٩٩١

عرض: روميو عباس

«النفس المبتورة، بحث في تشوهات الفكر والروح التي تشوب حضارات لم تشارك التاريخ أعياده، بل راحت تتقهقر...»<sup>(١)</sup>.

بهذه العبارة يفتتح داريوش شايفان بحثه الذي حظي بمدح الصحف الفرنسية، والذي قسمه إلى مباحث أربعة جعل في كل منها محاور تزيد في بعضها عن الثلاثة، وقد أراد من كل ذلك تركيب مادة تحليلية لخلفيات وأفكار العالم الإسلامي عموماً والمجتمع الإيراني على وجه الخصوص.

المبحث الأول: التمزق

في «بداية نهاية موقوفة»، وهو في الأصل مقالة نشرت عام ١٩٨٦ في مجلة فرنسية، يتحدث عن تأثير الغرب و«الحدائث» على العالم الإسلامي، وما يثيران ويحركان فيه من «مدارات مقاومة عديده»، وهي تتمثل تارة في الرجوع إلى «أسطورية الأصول، ظناً أنها تحلّ بأعجوبة كل النقاشات الأخلاقية والاجتماعية»، وتارة أخرى في الهروب «إلى الإمام نحو

مغامرات متزايدة المشاغل»، وتارة ثالثة في «الرفض القاطع لمواجهة تحديات الأزمنة الجديدة»، ومن هنا بدأت الهوامات التشاؤمية بالظهور؛ حيث رأى إلى كل ردأت الفعل هذه من زاوية حصرية هي الانحراف، يشهد على ذلك قوله بعد ذلك: «وكل هذه المهارب والمخارج المنحرفة إلى هذا الحد، أو ذاك تعبر عن وجوه شتى لظاهرة واحدة، وتترجم أعراض قلق عميق»<sup>(٢)</sup>، هذا القلق الذي اعتبره صادراً عن عدم فهم - العالم الإسلامي - «لظاهرة تاريخية كبرى [هي] الحدائث في معناها الواسع جداً»<sup>(٣)</sup>.

ينتقل داريوش من مطارحة إلى أخرى، وقد أخذت مقالته تنحو نحو العمق المنتج لولا أن أخذت التعميمات والتبسيطات تشوب مقالته، مضافاً إلى نظرة التشاؤم الذي لا شك في أنه مبرر في بعض نواحيه خصوصاً تلك المرتبطة بالأوجاع الواقعية، والمشاكل التي تعترى عالمنا الإسلامي والتي لا شك في أن شايفان يجد في ذلك عديدين ممن يشاطره الرأي، بيد أن تعميم هذه النظرة إلى كل ملامح وعناصر ومرتكزات العالم الإسلامي سيما العقل الجمعي، والنفس الباطنية، وهامش اللاوعي، وغيرها من مصطلحات أراد بها التصويب على ظاهر وباطن الهيكلية العامة للمسلمين أو ما عبّر عنه بـ «العالم

الخاص المتمثل بشخص سمح لنفسه لا أن يكون الناطق الرسمي باسم (اللاوعي الجمعي) فحسب، بل المترجم القاطع لإيحاءاته الكثيفة، وذلك الشخص ما هو إلا داريوش شايغان نفسه!

#### إجازات في التاريخ:

في هذا المقطع يرى داريوش إلى العالم الإسلامي على أنه خارج التاريخ «وبما أننا أكملنا عالمنا، فإننا انسحبنا منه لكي نكرس أنفسنا كلياً لأعمال التقى والورع...»<sup>(٥)</sup>، وأنه في إجازة رعوية فلم يلحظ تبدل العالم وتقدم التاريخ، وأنهيار ما ألفه، «ونحن كنا قد رمينا أنفسنا خارج أرض البشر، فلانحن في أرض الأجداد، ولا في أرض السادة الجدد...»<sup>(٦)</sup>.

بعض أمثلة: الصين والعالم الإسلامي:

ثم وكما محاولة لتعليل الخروج من (العالم المعاصر والتاريخ) يتحدث عن انغلاق العقل الإسلامي وقوة تحجره اللذين كانا السبب المباشر لذلك، الأمر الذي رآه ماثلاً أيضاً لدى الصينيين الذين لم يتوصلوا «قط إلى اكتناه الاقترانان العضوية التي تربط بين العلم والدين»<sup>(٧)</sup>.

لم يحشد شايغان في كلامه هذا الأدلة المثبتة له بالقدر الذي تمعن فيه - عن غير قصد - بتوصيف حنقه، ونظرتة الاستخفافافية إلى الإسلام والفكر

الثالث»، كل ذلك جعل من هذا التشاؤم حركة تتعدى دائرة الهمم الواقعي الذي يرى في حقيقته إلى ملامسة واقع والتماس علاج، وبالتالي هو حركة باتجاه الرتق والترميم لتصبح حركة في الاتجاه المعاكس.

حاول داريوش شايغان تجسيد هومات وخواطر بل وهواجس وتمثلات نفسية أشبه بمرادوات صوفية لا تجد لها حداً يبيدها ولا غوراً يكفيها، فرام في ذلك لغة الرموز التي أخذت تتجلى أكثر فأكثر خصوصاً عندما عمد إلى تظهير ما عبر عنه بـ «التمزق» النفسي وأخذ يرسم صوراً «مخيالية» لـ (أنا) افتراضية، رآها واقعة بين فكي كماشة التمزق المذكور، ثم أخذت الرموز تستفحل في لغة البحث، حتى تحولت «الأنا» إلى ناطق باسم «اللاوعي الجمعي» لملايين الناس المنضوين تحت ما أسماه تارة بـ «العالم الثالث»، وأخرى بـ «العالم الإسلامي»! وذلك عندما قال ما نصه: «إن رؤيتي للعالم [ويريد بأناه (أنا) الجميع - القارئ المستمع، والمتكلم -] ترجعني إلى تصور أولي تسبح الأشياء بواسطته في مناخ سحري... إن الأفكار المسقطنة تتشوه عند الاحتكاك بالاختلالات التي اجتاحت جزئياً بيئتي الطبيعية...»<sup>(٤)</sup>؛ وهكذا يصبح اللاوعي الجمعي المرمز بالأنا، له بدوره رمزه

الإسلامي، التي وصلت إلى حد النصح «أليس من الأفضل إجلالؤه [الإسلام] من المجال العام وإعادته إلى المكان الخاص به؟ صحيح أن الإسلام ثقافة غنية ولكنها مثل كل تلك الثقافات التي ظهرت على وجه الأرض...»<sup>(٨)</sup>.

بل إلى حد القول: «فالأم لا يتوقف على إسلام جيد أو سيء إنما يعود فقط إلى كون الإسلام قد مضى وقته تماماً من حيث هو كليات اجتماعية / سياسية...»<sup>(٩)</sup>.

لاغرو أن مبالغاته هنا أشبه بالشطحات الصوفية، ولعل اللوم يقع في ذلك على قولبته لتاريخ شأنه الاسترجاع، بقالب التوصيف، والترميز، ومقاربتة لدين - أي دين - شأنه التمهيص والنظر في مبادئه المعرفية مضافاً إلى مساراته التاريخية، بأسلوب «الدمغ» والتسطيح، أو التعمق لكن في الحيز الذي يسمح به أفق التسطيح نفسه! الأمر الذي إن عُفِر في صناعة الأشعار - ليس من جهة الدمغ والتسطيح طبعاً - فإنه لا يفغر في مجالنا ههنا، طالما أن الأمر يرتبط بإصدار الأحكام، واستقصاء الوقائع، ودراسة التاريخ، في نطاق يتعدى الظاهر ليشمل الفكر والنفس واللاوعي والمخيل والجمال، وغيرها من مصطلحات سمح شايفان لنفسه من خلالها بمقاضاة كل شيء يمت إلى العالم الإسلامي بصلة.

المبحث الثاني: التفاوت الوجودي:

لم يصف داريوش مزيد كلام إلى ما تقدم ذكره، بقدر ما أمعن هنا في تظهير الصورة التي جعلها مشوّهة للعالم الإسلامي، إلى حدّ تحدث فيه عن إصابة المسلمين «بفصام» مائل بين أفكار الحاضر ومواقف الأمس، وعن صراع قائم بين ما عبّر عنه بجذري التقدم والتأخر، الرقي والتخلف، وغني عن الإشارة هنا، القول إن جذر التأخر والتخلف جعله داريوش - بطبيعة الحال - من نصيب «العالم الإسلامي».

المبحث الثالث: حقل الاختلالات:

يستأنف داريوش ماسبق أن بدأ به، فأخذ يخوض في أسباب «الاختلالات» التي تصيب العقل الإسلامي، فنبت في خياله حقول اختلالية! عدّ منها الوعي المتأخر عن الفكرة، وما عبّر عنه «بالتصفيح» الذي عني به «وصل عاملين متباعدين لدمجهما في الكل المعرفي... وهو يقوم على مطابقة الأفكار... وإلى حدّ ما يحوّل التصفيح الواقع إلى خطاب فارغ...»<sup>(١٠)</sup>، وهذا التصفيح المؤدي إما إلى تفرنج وإما إلى تأسلم، يؤول في نهاية المطاف «إلى الظاهرة نفسها [وهي] الاختلال»<sup>(١١)</sup>.

لم ينس الكاتب أن يفرد في مبحثه هذا

فوق، عددها في أربعة: «المثقفون، «الفكرويون»، «التكنوقراطيون»، و«احترابيو الله»، وهذا كله في ظل انخفاض تدريجي في منسوب المادة العلمية التي كان قد بدأ بها، في مقابل ارتفاع ملحوظ في معايير النقد الصحفي، الأمر الذي ختمه أخيراً بعبارة: «فقد صار رجال الدين من المستهلكين لكل الاختلالات الممكن تخيلها... ومن الآن فصاعداً سيتوقف على ربح أو خسران لعبة البوكر هذه مستقبل الإسلام الشيعي، ومصير الحداثة». (١٢)

وهكذا، ينتهي داريوش شايغان من رسم صورة لنفس مبتورة، استوحاها من «مخيلات جماعية» لا غرابة أنه جسدها في أنه، على الأقل في مستهل بحثه.

فقرات عديدة خصصها للحديث عن الثورة الإسلامية في إيران، تحول مبحثه على أثرها إلى مقالة صحفية أشبه بتلك التي كانت تنشرها الصحف الأميركية إبان الثورة الإسلامية، وما سمي آنذاك بأزمة الرهائن في أوائل الثمانينيات، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المقالات - التي كتبها شايغان - نشرت متزامنة مع تلك الحقبية! في وقت شهدت فيه بعض الصحف الفرنسية موضوعية، وشفافية وصلت إلى حد التعاطف في بعضها مع الثورة والحركة الإسلاميتين في إيران.

المبحث الرابع: المرتكزات الاجتماعية للاختلالات:  
عمد داريوش شايغان في هذا البحث إلى تحديد مخصّصات رأها مباني ومرتكزات للاختلالات التي تحدث عنها

## الهوامش

- (١) النفس المبتورة، ص ٧.
- (٢) المصدر نفسه، ص ١١.
- (٣) المصدر نفسه، ص ١١.
- (٤) المصدر نفسه، ص ١٨.١٥.
- (٥) المصدر نفسه، ص ١٣.
- (٦) المصدر نفسه، ص ٢٦.
- (٧) المصدر نفسه، ص ٢٨.
- (٨) المصدر نفسه، ص ٢٧.
- (٩) المصدر نفسه، ص ٢٨.
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٩٤.
- (١١) المصدر نفسه، ص ٩٥.
- (١٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

الهوامش

السنة السادسة . العدد العشرون

قراءات ومراجعات نقدية

٣٦٨